

أسس الاقتصاد السياسي

سستيوارات ميل: يوم تنضب الثروات

يُعرف جون سستيوارات ميل عادة بأنه «فيلسوف الكينزي برز في علم المنطق ومناهج البحث العلمي، ومن أكبر دعاة مذهب المنفعة، كما يتل د. عبد الرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية، عن سابقه من باحثين وموسوعيين غير أن هذا التعريف في حقيقة الأمر غير مكتمل... أو غير دقيق، ذلك أن الاستهام الرئيس لسستيوارات ميل لم يكن في الفلسفة بقدر ما كان في مضمار الاقتصاد السياسي، حتى وإن كان في الأماكن احصاء ككب فلسفية عدة له، ففي الفلسفة لم يأت سستيوارات ميل بجديد حقيقي، إما جيدة، أو اضافاته، فكانت في الاقتصاد، إنما مبنياً على أسس فلسفية، كما ستكون مثلاً حال كارل ماركس وماكس فيشر، من الذين اختلطات الفلسفة لديهم بالاقتصاد، لكن الأساس في اسهاماتهم تبرز في الاقتصاد أكثر مما في الفلسفة، أو على الأقل يمكن القول أنهم جعلوا الفلسفة منهجاً لفهم الاقتصاد والتعمق فيه، وفي هذا الإطار حسبنا أن نقرا كتاب سستيوارات ميل الرئيس «أسس الاقتصاد السياسي» حتى نترك جوهر ما نقول.

● ففي هذا الكتاب الذي نشره سستيوارات ميل في العام ١٨٤٨، أي في خضم الزايع التي عصفت بأوروبا، حركات ثورية، انزاحت فيها الإيديولوجيا - المرة الأولى في تاريخ الثورات - محلية المكان للمصالح الاقتصادية تلعب دورها الأساس في تحريك الجماهير في ثوراتها الانيكالية، في هذا الكتاب استخدم سستيوارات ميل المنطق الفلسفي ليرسم معالم نظرياته الاقتصادية، والمهش في هذا الكتاب هو أن سستيوارات ميل تمكن فيه من جمع أفكار ونظريات ما كان يمكن لها أن تختص من قبل، وهكذا تحدد، في بوثقة واحدة، اسنادات إلى سمعت وريكاردو، متضافرة مع اسنادات إلى مالتوس (المختوب عليه دائماً من اللقدين بسبب ما فهم قمعاً للترايد السكاني في نظرياته) إذا، من الواضح أن مؤلف «أسس الاقتصاد السياسي» هي استند إلى هؤلاء المفكرين الثلاثة معاً، لرسم معالم نظريات اقتصادية، هي في نهاية الأمر ذات سمات تقدمية واشتراكية لا شك فيها، وفي هذا الإطار الأخير، يرى الباحثون دائماً أنه إذا كان سسميث - ريكاردو - مالتوس قد شكلوا المرجعية العلمية لبحوث سستيوارات ميل، فإن تأثيرات الثلاثي الآخر (سان سيمون، برونون، فورييه) عليه، لم يكن ضئيلاً، ومن هنا اعتبر «أسس

الاقتصاد السياسي» أشبه بتولية خلافة تأخذ من كل الفكر الاقتصادي القائم على مفاهيم التقدم بشكل أو بآخر، ومع هذا فإن لهذا التقدم حدوداً في نظر سستيوارات ميل، ولهذا الحدود اسم هو «الدولة المجددة»... ذلك أن سستيوارات ميل اعتبر أن التقدم مهما كان تصاعده وسرعته أو بطءه وتبؤته، لا بد له أن يتوقف يوماً ليخلي المكان أمام دولة ثانية مجددة، محدودة في عدد سكانها (وهنا يكمن تأثير مالتوس)، لكي تستطيع أن تؤمن الرفاه ليهؤلاء السكان، طالما أن الموارد والثروات مبدودة.

● ولترصيع هذه الفكرة - التي هي أساسية عند سستيوارات ميل - لا بد من أن نعود إلى تفحص المنهج الذي عبر عنه في هذا المؤلف الرئيس، مفقدين بين ما «استعاره» من ثلاثي سسميث - ريكاردو - مالتوس، وما استند فيه إلى الثلاثي الثاني (سان سيمون - برونون - فورييه)، فهو أخذ من الأول مفاهيم الإنتاج والتبادل، وقائل المنفعة الشخصية، والتنافس الحر، والعائد غير النسبي والحد الأدنى للأجور وقضايا الربح العفاري ومفهوم التبادل الحر وغيرها، لكنه، بالاستناد إلى الثلاثي الثاني، صاغ واستخلاصاته النظرية، معارضاً بشكل أساس مفهوم الملكية الخاصة، التي اعتبرها «تمركزاً» للثروة لا شرعية له ولا تبرير، ولقد أوصل هذا سستيوارات ميل إلى رفض فكرة التوريث بورتها، واصلاً إلى مستوى من الفكر يربط كل شيء، بالمسواة الأولية الأصلية التي كانت سائدة قبل التاريخ بين البشر، وهكذا رأى الكاتب أن الأرض، مثلاً، ليست نتاج أي عمل، بل هي هبة من الطبيعة لا يمكن لأي فرد أن يمتلكها إلا قسراً وبالتسلط، وأن يسير سستيوارات ميل هنا في سياق منطق هذا يصل بنا إلى التوسع في دراسة الساتليكية - الجامدة - والديناميكية - المتحركة - للاقتصاد، وهذه الدراسة تقوده، بحسب محلي عمله إلى صياغة نظرية «الدولة المجددة» هذه النظرية التي، بحسب الباحثين «تشكل الجزء الأكثر أصالة في عمله ككل»، إذ أن سستيوارات ميل يقف هنا، في التعارض التام مع ريكاردو، باحثاً عن عالم تسيره رؤية أخلاقية واجتماعية... أي على الضد من عالم ريكاردو الذي تحركه لعبة المصالح الاقتصادية وحدها. إذ تطرح على سستيوارات ميل مسألة معرفة الغايات التي تسير نحوها المجتمعات وتقدمها، وإلى أي حدود يمكن للتقدم الاقتصادي أن يصل في قيادته للمجتمع، وماذا ستكون عليه أوضاع المجتمعات حين تصل ضروب التقدم إلى نهاية لا تقدم بعدها، يكون رده غير تصوره لـ «الدولة المجددة»... التي يعتبرها، في نهاية التحليل «المرحلة النهائية» و«الخاصة بالطبيعة» لحال «الدولة المساننة» قديماً في تطورها إلى «الأمم»... حيث أن سستيوارات ميل يقول لنا هنا أن «الثورات في نهاية الأمر، محدودة...» ما يعني أن الأرض تقس، غير أن الباحثين لا يرون أن طبيعة الأمور، ومحدودة كوكب الأرض تقس، غير أن الباحثين لا يرون أن هذا الواقع الذي يحصفه سستيوارات ميل بهذه البساطة، يمكن أن يكون واقعاً

متشابهاً، بل على العكس، أنه الواقع الذي يتعين التعامل معه، انطلاقاً من أن «دولة التقه» لا يمكن أن تبقى، بتيجة الأمر، إلى الأبد، أما الانسانية فانيا، بفعل هذا الواقع، لن تكون قادرة على الإفلات من التؤس (الذي يكن، نظرياً، في انتظارها من جراء هذا الواقع الحتمي) إلا بتنظيم نفسها. وهذا التنظيم هو ما يتحدث عنه سستيوارات ميل، مبدعاً آياتاً عن الصورة السوداء التي كان يمكن أن نراها من خلال وصفه لواقع الأمور: الحل المنتظم هنا يقوم، إذا، في «تنظيم الدولة المجددة» بالنسبة إلى السكان يتأدي سستيوارات ميل، تنظيم السكان وتنظيم الإنتاج، بالنسبة إلى الجبل التالي كافياً - لا أكثر ولا أقل - للحول مكان أبناء الجبل السابق عليه، وهذا التنظيم السكاني هو الذي - بالنسبة إليه - يضمن عدم حدوث زيادة مريعة في عدد الأقوا التي تنتظر من المجتمع اطعامها، أما بالنسبة إلى تنظيم الإنتاج، فإن سستيوارات ميل، انطلاقاً من مفاهيم اشتراكية، لا بأس من القول أنها كانت عامضة إلى حد ما، يتأدي بضرورة أن يقوم القيمون على «الدولة المجددة» بتوزيع الإنتاج، بشكل عادل، بين شتى الطبقات الاجتماعية.

● من الواضح أن لجون سستيوارات ميل منطقته المتكامل في هذا كله، غير أن دراستنا لنظرياته على ضوء، ما حدث في عالمنا خلال القرن ونصف القرن الأخيرين، يستقول لنا أن هذا التحليل الذي يبدو لوهلة منطقياً، يتسم في نهاية الأمر بقدر كبير من الانتقائية طالما أنه يسعى إلى الخط بين ما يبدو لنا اليوم مصالح فردية وما قد يبدو تطلمات اشتراكية، من دون أن يأخذ في الاعتبار ليس تطور الإنتاج، بل أساليب الإنتاج، التي أحدثت، بعد سستيوارات ميل بزم ثورات، أسوأ ما فيها - على أي حال - هو أن الإنسان والمجتمعات لم يستفيدوا منها كما يجب.

● بيد أن هذا القصور المجتمعي والبشري لا ينبغي بالطبع أن نستخلص منه أن جون سستيوارات ميل (١٨٠٦ - ١٨٨٢) كان طويانياً في أفكاره... بل كان واقعياً، وربما يمكن القول أن مشكلته الأساسية كمنيت في إيفاله غير المحدود في التعاطي مع الواقع، وكما اشترنا، كان جون سستيوارات ميل باحثاً اقتصادياً - وهو استقار في هذا كثيراً من عمله مع «شركة الهند الشرقية» لفترة من حياته - كما كان فليفسوفاً هو الذي درس أرسطو وهو من منذ كان في الثانية عشرة، بحسب ما يروي عنه، كما درس الاقتصاد السياسي على أيدي بنتام وريكاردو اللذين كانا صديقي والده، ولقد تنقل سستيوارات ميل في حياته كثيراً، عاش في الهند كما في فرنسا (الجنوب خصوصاً)، وفي وطنه الأم الكثير، ومن مؤلفاته الشهيرة «حول الحرية» و «مذهب النفعية» و «أفست كركت والرفعية»، إضافة إلى دراسات عن الدين وكلاهما مهم نشر بعد وفاته عن سيرته الذاتية.

ابراهيم العريس